

أو الالتزام الحقيقي

إعداد

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري







حقوق الطبع محفوظة
الدار العالمية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع

٢٠١١/٣٦٠٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N.: 978-977-5025-21-0



ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٦٥٥٢١١٨ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E-mail: alamia_misr@hotmail.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآله وسلم تسليمًا كثيرًا، ثم أمَّا بعد: فإنَّ الاستقامة على طاعة الله هي أعظم كرامة يكرم بها الربُّ عبدَه، وهي أسمى غايات المؤمن في هذه الحياة الدنيا، وهي -كذلك أولى ما ينبغي أن يُشغل المرءُ بطلبه.

وقد سأل رجلٌ رسولنا ﷺ ، فقال: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، فقال له ﷺ : **«قل آمنت بالله ثم استقم»**[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ

---

(١) رواه مسلم.

﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)، والتنكل عن الاستقامة هو سبب سوء أحوال المسلمين- في الحقيقة- على الرغم من كثرة أعدادهم، بل وكثرة أعداد المنتسبين إلى الالتزام منهم، ولكن صار الالتزام- عند الكثير- مجرد ظواهر تُلتزم، وصارت العبادات مجرد حركات تُؤدى مع غياب معاني الإيمان والتقوى عن القلوب، فأكتب هذه الرسالة إلى الذين انشغلوا بطلب العلم- في ظنهم- وأهملوا جانب العبادة من قيام ليلٍ، وقراءة قرآن، وذكر لله، وكذا أكتبها إلى الذين تحيَّروا كيف يصلون إلى معرفة الله والأنس به، وكذا أكتبها إلى الذين انشغلوا بالعبادة- في ظنهم- وأهملوا جانب العلم الشرعي، وأضاعوا الوقت فيما يحسبونه تفكيرًا، وليس كذلك، وكذا أكتبها إلى الذين شغلُوا بطلب الرزق، ولم يدروا ماذا يصنعون؛ لئلا يفسد عليهم قلبهم، وكذا كيف يحافظون على سلامة قلوبهم، وكذا أكتبها إلى الذين انشغلوا بالدعوة إلى الله في ظنهم- وأهملوا العلم والعبادة، فهلَّا دعوا أنفسهم إلى الله، فهي-

والله أولى النفوس خيرهم، فالله أسأل أن ينفعني بهذه الرسالة أنا وجميع المسلمين والمسلمات، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

ونظرًا الضعف إيماني، وعدم صلاحية المرء لوصف طريق لم يسلكه؛ فقد تلمستُ وتحسستُ حتى منَّ الله عليَّ بمعرفتي بمن كان يعاني مما أعاني منه أنا وإخواني من التنكل عن طريق الهداية، فاستطاع -بفضل الله أن يهذِّب نفسه وسط ظروف مشابهة لتلك التي يعيشها الكثير، فرأيتُ أن أصوغ طريق تهذيبه لنفسه عن طريق أسئلة يجيب عنها، عسى أن تكون أجوبته مصباحًا على طريق الاستقامة أو الالتزام الحقيقي، وربما علّقتُ على أجوبة الشيخ بتنبيهات؛ ليكون أعمَّ للفائدة، وأنفع بإذن الله، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتبه

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري

السائل: كيف بدأت الطريق؟

الشيخ: اشتغلت بطلب العلم، وتفرغتُ له، ووجدتُ اللذة في طلبه، والسعادة فيما أحصِّل من مسائل وعلوم شرعية، إلا أنني كنت أفتقد طمأنينة القلب وحلاوة اليقين؛ لقلَّة عملي بما أتعلمه، ولإهمالي لقراءة القرآن، وحتى مررتُ بمشاكل قاسية، ضقتُ بها ذرعًا حتى غمرني الحزن والقلق والاكتئاب من كل جانب، ففزعتُ إلى قراءة القرآن، فكنتُ أكثر من قراءته حتى ربما قرأتُ في اليوم الواحد عشرة أجزاء أو ثمانية، ودمتُ على ذلك أيامًا فاطمأنت نفسي وزال حزني وشعرتُ بسكينة القلب، وأحسستُ بالخشوع، وكنتُ إذا صليتُ لم أشعر بالوسواس والخواطر التي كانت تأتيني من قبل، بل صرتُ أشعر بقلبي محظوظًا من الشياطين فضلًا من الله ونعمة، ووجدتُ البركة في القوت، فقد كنتُ قديمًا أهمل القرآن ظنًّا منِّي أنَّ الانشغال به يضيع وقت العلم، فكان كثيرًا ما يضيع الوقت في نومٍ أو كسل وفتورٍ، وأمَّا بعد اهتمامي بقراءة القرآن فقد تغير ذلك كله، فنومي قليل، ووقتي مباركٌ فيه، ونادرًا ما يأتيني كسل أو فتور، بل الأعجب من ذلك أنَّ نفسي لم يعد عندها نهمة

لطعـام أو شرابٍ طواعيـة دون تكلف أو إرغام، مع أنها كانت من قبـل إلى غـير ذلـك، وكنـتُ إذا أرغمتُها عـلى قلة الطعام شـعرت بالحرمـان ونازعتني إليه بشـدة، مما كان يفسـد عليَّ قلبي ويشـتت فكـري، فتذكـرت قـول النبـي ﷺ: «**فالمؤمـن يأكل في معـيٍّ واحدٍ، والكافر يأكل في سـبعة أمعـاء**»[1]، يقصد أنَّ المؤمـن نفسـه مطمئنة بالإيمان، فنفسـه غـير منهومة، وأمَّـا الكافر فالجشع والقسوة يملآن قلبه، فهو يأكل كالأنعام.

وأصبحتُ مع القرآن أشعر بالراحة والسعادة، وأحسست وكأنني صرتُ ذا وظيفة وعملٍ بعد ما كنتُ لا وظيفة لي ولا عمل لي، وشـعرتُ بأنني قد وجدتُ بغيتي بعدما كنتُ تائهًا وأحسَّـت نفـسي بأنهـا قد وجـدت ما كانـت تفتقده نعـم- لم أصـل بعدُ إلى المعرفة، ولكني قد وضعتُ قدمي على أول الطريق.

فندمـتُ عـلى فرطت في حق القرآن من قبـل، كم فاتني من خـير!! وكم فاتنـي من حسـنات!!، فجعلـتُ اهتمامـي بالقرآن، وأكثـرتُ من تلاوته ليلًا ونهارًا، وجعلتُ لي وردين: وردًا بالنهار

---

(١) رواه مسلم.

أقـرأ فيه أربعة أجـزاء يوميًا نظرًا من المصحـف[(١)]، ووردًا بالليل أتدبـر فيه القرآن، فربما قمتُ الليلةَ بجزأ وربما بحزب وربما بأقل أو أكثر، إلا أنني لا همَّ لي فيه غير التدبر والتفهم لمعاني القرآن.

وأما ورد النهار، فالهمُّ الأكبر فيه للقراءة[(٢)]، فلمَّا دمتُ على ذلك أسـابيع شـعرتُ بـزوال الجفوة بيني وبين كتـاب الله، فقديمًا كنتُ لا أحتمل قراءة أكثر من جزء، وأما الآن؛ فقد سهل عليَّ قراءة خمسـة أجزاء دون ملل أو فتور، إلا أنني لم أحسن بعدُ تدبر القرآن فلجأتُ إلى الله، وأدمنتُ الدعاء في آخر ساعة يوم الجمعة[(٣)]، وفي

(١) لـو تيسر للمـرء أن يختـم القـرآن كل سـبعة أيـام كصحابة رسـول الله ﷺ رضي الله عنهـم لـكان خـيرًا كبـيرًا، والمقصـود أن يقرأها سريعةً بحيث يتيسر مع هذه القراءة بقية وظائف اليوم..

(٢) إنما ينجع القرآن في القلب إذا كان بترتيل مع علو صوت المرء به ليسمع نفسـه سـواء في ورد الليـل أو ورد النهار، بخلاف القـراءة السرية؛ فإنها أضعف أثرًا في القلب.

(٣) آخر ساعة يوم الجمعة تحدد بحساب عدد ساعات يوم الجمعة ثمَّ تقسم عـلى (١٢) لحديـث رسـول الله ﷺ : «**يـوم الجمعـة اثنتا عشرة سـاعة**»، فيحسـب المرء ما بين الفجر والمغرب من سـاعات ثمَّ يقسـمها على (١٢) ليحدد آخر ساعة.

العمرة أثناء الطواف والسعي خاصةً في السحر[(١)]، فقد نصحني أحدُ الصالحين بالإكثار من العمرة، فدمتُ على ذلك- بحمد الله ووجدتُ أثرها في القلب[(٢)]، ووجدتُ حلاوة الإيمان تزداد في قلبي، وسهل عليَّ تدبر القرآن شيئًا فشيئًا، وزاد خشوعي في الصلاة، وزادت طمأنينة قلبي، وأحسستُ بحلاوة الدعاء، فأدمنتهُ وداومتُ عليه حتى أحست نفسي - من فرط السعادة به - وكأنها قد دخلت الجنة، نعم - يصيبها الفتور والملل أحيانًا، ولكن حسبي أنني قد أحسست بسعادة الإيمان.

السائل: ومتى سهل عليك تدبر القرآن؟

الشيخ: مع كثرة دعائي وكثرة محاولاتي للتدبر، فمنَّ الله عليَّ بتدبر القرآن، وزاد تدبري له: علمي بمعاني آياته وأسباب

(١) على المعتمر استغلال كل فرصة للدعاء، فيدعو في طوافه وسعيه، وينوي بشربه لماء زمزم الهداية والاستقامة، ويكثر من الدعاء بالهداية والاستغفار أثناء السحر.

(٢) مع مداومة المرء على العمرة سيجد بركة ذلك في زيادة الإيمان وصلاح الحال عامًا بعد عام، وفي الحديث «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد والذهب والفضة»، وأفضل الاعتمار ما كان في رمضان.

نزولها ومعرفتي بأقوال العارفين في تفسير بعض آياته، وكذا اطِّلاعي على دقائقه اللغوية وروعة أساليبه البلاغية[١]، فصرتُ أشتاق إلى قيام الليل لما فيه من سعادة ولذة أحسُّ بها عند تدبر القرآن، خاصةً وأنني ربما بكيت عند قراءة القرآن، إلا أنَّ نفسي ربما حدثتني بالعجب وبأنها قد وصلت وعرفت ما لم يعرفه غيرها، وربما حدثتني بمراءاة الناس وبأنهم لو عرفوا سعادتي وبكاءي لمدحوني ولأحبوني، فكان كثيرًا ما يفسد عليَّ قلبي بعد صلاحه، بل ربما ابتليتُ بمعاصٍ أقع فيها فحزنتُ على ما فات من حلاوة الإيمان وسعادة القلب، فأخذتُ ألوم نفسي على ما جنت من عجب ورياء وذكَّرتُها بسيئاتها الأولى وكيف كانت كسولة لا تكاد تعمل بشيءٍ مما علمته ولا تكاد تهتم بالقرآن، وكيف أنَّ الله منَّ عليها بالعمل وأكثرتُ من تذكيري لها بسيئاتها وبما فاتها من ليالٍ لم تقم فيها، وبما ضاع من ليالي القدر حتى

(١) من الكتب التي عُنيت بتوضيح المعاني الإيمانية في القرآن وحلاوة أساليبه ودقة ألفاظه: كتاب «كنوز قرآنية»، وكتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب، إلا أنه لا غنى عن أمهات كتب التفسير؛ كـ«تفسير ابن كثير»، و «تفسير القرطبي»، و «فتح القدير» للشوكاني.

صغـرت وتضاءلـت وندمـت، فأكثرت مـن الاسـتغفار والتوبة حتى رق القلب واشتاقت نفسي إلى الطاعة، فقلتُ: الجْأي إلى الله وسـليه التوفيق والدوام، وليكن أكثر دعائك: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشـكرك وحسـن عبادتك**»، واحذري العجب والرياء، وإلا فسد قلبك وضاع ثواب عملك[١].

وكـذا أخذتُ في الاطلاع على سـير الصالحـين واجتهادهم لتصغير عبادتي في عيني فلا أعجب بها[٢]، وكذا حذَّرتُها من سوء الخاتمة، فربما أحسـن المرء العمل وسـاءت خاتمته لخبيئة في نفسـه لا يعلمهـا إلا الله، فكيـف الفـرح مع هذا؟ فانقشـع عنها ضباب العجب بفضل الله، وصار حالها حال الخائف من سوء الخاتمة.

فلما دامـت نفسي على تلاوة القرآن نهـارًا وتدبره ليلًا وعلى قراءة سير السلف وعلى دوام تذكر سيئاتها؛ عزفت نفسي عن الدنيا

(١) من الكتب الهامة التي ينبغي دراستها لمعرفة وعلاج آفات القلب من حسد وحقد ورياء وغيرها: كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة.

(٢) مـن الكتب الهامة في هذا الموضوع: «سـير أعلام النبلاء»، كتاب «حلية الأولياء»، كتاب «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل، كتاب «صفة الصفوة»، كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان» للمصنِّف.

أكثر من ذي قبل، وأحسستُ بالسكينة في قلبي وبوقار الإيمان في نفسي، وصار القرآن نور صدري وبهجة نفسي، وأحسستُ عند قراءته بأنَّه حقًا كلام الله، فربما شعرتُ عند بعض الآيات بأنَّ الله يخاطب الناس بها، وربما شعرتُ بأنني أُخاطَب، وكثير بكاءي عند تدبره[١]، فربما بكيتُ لحلاوة الأسلوب وجمال الألفاظ، وربما بكيت حبًا لله وشوقًا إليه، وربما بكيتُ ندمًا على تقصيري وغفلتي، وربما بكيتُ فرحًا بفضل الله عليَّ وإنعامه بتدبر القرآن، وربما شعرتُ بوارد البكاء يأتيني فلا أستطيع دفعه فأبكي ولا أدري ما سبب بكائي[٢].

ووجدتُ القرآن يحث نفسي على الخيرات من حسن الأخلاق والإكثار من الصدقات، والإقبال على الآخرة، ووجدتُ

(١) لا يصل العبد إلى هذه الدرجة حتى يجعل همَّه من القراءة التدبر لا البكاء، فإن أتى البكاء فبها ونعمت، وأما من جعل همَّه البكاء والتكلف له، وجعل أكبر همِّه سعادة نفسه لا صلاح قلبه ولا تهذيب نفسه، فمثل هذا لا يصل في الغالب.

(٢) هذا من الشيخ - أكرمه الله من باب التحدث بفضل الله بغرض التعليم والنفع للغير، لا من باب الفخر والعجب، وقد صح عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أخبر الناس أنه كان كلَّما تذكر ما قاله لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية تصدق وعمل أعمالًا صالحة، فدل على جواز التحدث بالعمل من أجل التعليم والنصح.

نفسي قد توفر لها معه الوقت، فشغلتُ نفسي بطلب العلم، ونوعتُ أبواب العلم التي أدرسها[(١)]، لئلا تملّ نفسي، فتارةً أدرس الفقه، وتارةً أدرس التوحيد، وتارةً التفسير، وتارةً كتب الأحاديث الصحيحة وشروحها[(٢)]، وجعلتُ معها كتب الرقائق كزادٍ لقلبي[(٣)]، فوجدتُ للعلم طعمًا آخر، ووجدتُ نفسي تلتمس

---

(١) من العلوم الأساسية علمي الفقه والتوحيد، وأفضل ما يُدرس للفقه: «كتاب منار السبيل» بشرح الشيخ أحمد حطيبة حَفِظَهُ اللهُ ونصيحتي لإخواني أن يسمعوا الشرح للكتاب من أوله إلى آخره كاملًا ثم يعيدوه ثانيةً حتى يكتمل هضم المسائل وفهمها، وكذا علم التوحيد، وأفضل ما يُدرس: شروح الشيخ ياسر برهامي ٥لكتب (فتح المجيد، معارج القبول، منة الرحمن، فضل الغني الحميد)، وليكثر المرء من دراسة هذه الكتب قدر المستطاع، ولو بأن يسمع بمقدار ٣٠ دقيقة يوميًا من شرح الشيخ أحمد، ومثلها من شرح الشيخ ياسر.

(٢) مثل: «صحيح مسلم بشرح النووي»، «فتح الباري بشرح البخاري»، «عون المعبود بشرح سنن أبي داود»، و«مسند الإمام أحمد»، «تحفة الأحوذي بشرح الترمذي»، «صحيح الجامع»، «السلسلة الصحيحة»، و«صحيح الترغيب والترهيب» للشيخ الألباني، «صحيح القصص النبوي» للأشقر.

(٣) نصيحتي أن يكثر المرء من قراءة كتب الرقائق باستمرار لتكون المعاني الإيمانية وحقائق الإيمان حاضرةً لديه على الدوام.

منه الهدى والتقى، وتنبغي منه نفع نفسها وغيرها من المسلمين، وتطلب به النجاة من النار والفوز بالجنة، وذهب عني كثيرٌ من الكسل والفتور اللذين كنتُ أجدهما مع طلب العلم المجرد عن قراءة القرآن والعمل به، بل وأحسستُ بأثر العلم في القلب بعدما كان مجرد كلامٍ على اللسان، فتذكرت قول بعض السلف: «كنا إذا تعلَّم أحدنا الحديث الواحد رؤي ذلك فيه»،فندمت على ما ضاع من وقتٍ بعيدًا عن طلب العلم، فقديمًا كنتُ أترك قراءة القرآن والعمل بالعلم حرصًا على طلب العلم والإكثار منه، فكان كثيرًا ما يضيع الوقت في الكسل والفتور والنوم، بل زادت بركة القرآن والعمل بالعلم حتى وجدتُ نفسي قد اتسعت قلبها لفهم المسائل واستنباط الأدلة، وأحسستُ بتوفيق الله وتوجيهه وتيسيره لطلب العلم وتحصيله من حيث لا أحتسب.

وزادت بركة القرآن أنني بالإكثار من تلاوته والاهتمام به، قد سهل عليَّ استغلال المواسم والأوقات الفاضلة، فقديمًا كنتُ أهمل قراءة القرآن طوال العام وأقول سأعوِّض ذلك في رمضان وعشر ذي الحجة، فإذا أتى رمضان، أو العشر الأوائل

من ذي الحجة، أجد جفوةً بيني وبين القرآن وأشعر بالكسل والملل والفتور، فتنقضي هذه الأيام الفاضلة، وقد قصرتُ فيها أشد التقصير، وأمَّا الآن، فقد زالت هذه الجفوة، وزاد ارتباطي بالقرآن، فسهل عليَّ تدبر القرآن وتلاوته آناء الليل والنهار في هذه الأوقات الفاضلة خاصة العشر الأواخر من رمضان التي فيها ليلة تعدل أكثر من ٨٣ سنة، وهي ليلة القدر فعلمتُ أن ليلة القدر - التي تعدل عمرًا بأكمله لا يُوفق لها إلا من أحسن الارتباط بالقرآن والطاعة طوال العام، ولعلَّ هذا -والله أعلم- هو مقصود ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله: «مَنْ يَقُم الحول يُصِب ليلة القدر»، أي: لا يُوفق فيها إلا من أحسن الاستعداد لها طوال العام، فلا إله إلا الله، كم في الارتباط بالقرآن من خير!!

ومع دوام ارتباطي بالقرآن، وجدتُ نفسي تُقبل أكثر على طلب العلم وتحصيله حتى نفسي تغلي بطلبه، وتكثر من القراءة والاطلاع والمدارسة، إلا أنني ربما شُغلت عن طلبه يومًا لمصلحة ما راجحة كصلة رحمٍ أو عيادة مريض أو زيارة أخٍ لي في الله، ولكن أعوِّض ما فات بعد.

وزادت فائـدة القرآن أنني مع اهتمامـي بالعلم المجرد قديمًا- ربـما لم يتيسر لي طلب العلم لظـرف ما في وقت ما، فكنتُ -للجفوة بينـي وبين القرآن- لا أكاد أقرأ القرآن في هذا الوقت، بل يضيع بلا فائدة، وأمَّا الآن، فقد تيسر لي اسـتغلاله في قراءة القرآن، ومع زيادة حبـي للقرآن، وحفظي له(١)، اسـتغللتُ أوقـات المشي في مراجعته وتسميعه، فتوفر لي وقتٌ أكبر لطلب العلم ومدارسته(٢)، فأشرقت أنـواره في القلـب، ورأيتُ بعينـي قلبي حِكَم الله الباهـرة في أحكام الـشرع وآدابه، وذقـتُ حلاوة قول النبـي ﷺ: «**رضيتُ**

(١) الظاهـر من حال الشـيخ أنه قد بدأ الطريق بعـد حفظه لكتاب الله، فمن بدأه قبل حفظه، فليقلل من ورد القراءة ويشغل هذا الوقت بالحفظ.

(٢) من الخطأ البين إعراض بعض المنتسبين للعبادة عن طلب العلم الشرعي بزعمهـم أنهم قد تعلموا العلم الواجب عليهم، وجهلوا أن طلب العلم من أكبر أسـباب صـلاح القلب واسـتقامته في العبادة، فضـلًا عن عدم التسـليم بتحصيل العلم الواجب، إذ مسـائل التوحيـد الواجب تعلمها كثـيرة، وكـذا أبـواب الفقـه الواجـب تعلمها، وعـلى كل حـال فحاجة المسلمين إلى طلاب العلم والعلماء أكبر من حاجتهم إلى العباد، وقد قال ﷺ: «**فضـل العـالم علـى العابد كفضلي علـى أدناكم**»؛ وذلـك لعمـوم نفعه وتعديه، وقـد زدتُ ذلك إيضاحًـا في كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان»، وكتاب «تهذيب النفوس» والحمد لله.

بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»، وذقتُ حلاوة الأذكار، ووجدتُ السكينة والتدبر عند الذكر، وصرتُ أشتاق إليه وأجد مرارة فقده، ففرحتُ بفضل الله عليَّ، إلا أنَّ الرجاء -لسعادتي بالطاعة- قد غلب الخوف(١)، وفرحي بالطاعة قد غلب حزني(٢)، على تقصيري وتفريطي، وعلى حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فأكثرتُ من ذكر الموت عملًا بأمر النبي ﷺ: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»، وأكثرتُ من ذكر سيئاتي وتقصيري عملًا بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (الحشر:١٨-١٩)، وذكرت نفسي بحال المسلمين بين الحين والآخر؛ لئلا يفسد القلب عند الانشغال بالشهوات المباحة.

---

(١) المطلوب اعتدال الرجاء والخوف في القلب.

(٢) الحزن ليس مقصودًا شرعًا، والمقصود ها هنا الندم على المعاصي والتفريط في الطاعة، والتألم لحال المسلمين، وفي الحديث: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

السائل: أحيانًا أجد في نفسي العجز والكسل فما سبب ذلك؟

الشيخ: بسبب إهمال العبد للطاعات وتكاسله يُحرم قلبه إرادة الخير، فتشعر النفس بعدم الرغبة في فعل الخير أو بالعجز عن فعله، وهذا هو العجز المذموم الذي صح عن رسولنا ﷺ الاستعاذة منه.

السائل: فما علاج هذا العجز؟

الشيخ: علاجه بثلاثة أمور:

(أ) **إحساس النفس بالتقصير:** فهذه أول خطوة لعلاج هذا العجز، وهو أن يشعر المرء بأنه مقصر، وذلك بمصاحبته لأهل الصلاة وقراءته لسير السلف الصالح ليعرف تقصير نفسه، ومن رحمة الله بعبده المؤمن أنَّه إذا كسل وفتر عن الطاعة شعر بضيق نفس وحزنٍ يجعلانه يحنُّ إلى سعادة الطاعة وسعادة النفس بها ليكون ذلك أدعى لتنشيط القلب فتكون النفس في دعائها بذهاب العجز والكسل في كامل التضرع والرغبة والرجاء، وكذا لتعزم عزمًا أكيدًا على تغيير الحال ولتكون على شعورٍ بضرورة هذا التغيير، وأنه لابد منه، وليس مجرد أمرٍ هام، وهذه هي الخطوة الثانية لعلاج العجز والكسل، وهي:

(ب) إحساس النفس بضرورة تغير الحال.

وأما الخطوة الثالثة، فهي:

(جـ) الأخذ بالأسباب المتاحة: كأن تعمل بما تستطيع، فمن رحمة الله أنه إذا أصاب المؤمن بفتور أو كسل، مكَّنه من بعض العمل، فمن كان يستطيع مثلًا قيام الليل بآيات كثيرة مع التدبر كما تعود من قبل، فإنه غالبًا ما يستطيع القيام بآيات أقل ولو مع عدم التدبر، وقِسْ على هذا، فإذا لم يعمل العبد بما يستطيع ودام على ذلك؛ حُرم بعدل الله من إرادة العمل نفسه.

وكذا بالدعاء، فهو أهمُّ سببٍ بشرط أن يكون من قلبٍ يائسٍ من نفسه وواثقٍ في ربه وعازمٍ عزمًا أكيدًا على التغيير ويتخير أوقات إجابة الدعاء، ومن أولى ما يدعو به المرء أدعية القرآن وأدعية السُّنَّة الصحيحة، وقد قام بجمعها شيخنا الحبيب/ محمد بن إسماعيل في كتاب «مختصر النصيحة»، وشيخنا الحبيب/ أحمد حطيبة في كتاب «الدعوات الطيبات».

السائل: أحيانًا يُوفَّق العبد للطاعة ثم يُحْرَم منها، وكذا يترك المعاصي ثم يفعلها، فما السبب؟!

الشيخ: سبب ذلك هو ثقة العبد في نفسه وعدم كمال توكله على الله، وعدم شعوره بالحاجة الملحة الدائمة إليه، فيخذل الله العبد ويحرمه الطاعة؛ ليوقن بألا حول ولا قوة إلا بالله، وألا خير في نفسه إلا بالله ومن الله، فخذلان العبد هاهنا رحمةٌ من الله به ليكمل إيمانه؛ إذ ليس في مقدور الكثير أن يستشعر هذه الحاجة الملحة إلى الله، بدون هذا الخذلان ومن عجيب رحمة الله أنَّ العبد ربما دام فترةً على ترك المعاصي وفعل الخير، حتى إذا وثق في نفسه، وركن إليها خذله الله، وعاد كما كان، فإذا تكرر هذا بالعبد، كمل يأسه من نفسه، وكمل اعتماده على ربه.

السائل: فِيَّ عيوب لا أستطيع تركها فكيف أتخلص منها؟

الشيخ: وزع اللهُ العيوب والمواهب، وجعل من العيوب ما يسهل على المرء أن يتخلص منه، ومنها ما لا يستطيع المرء التخلص منه ليدوم شعوره بالفقر إلى الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا أيقن بالفقر إلى الله، كان الخير والفلاح حَلِيفَيْه، فمن فوائد

ابتلاء العبد بالعيوب والمعاصي أن يدوم شعوره بالفقر والحاجة إلى الله، فيدوم تضرعه إليه بجلب الخير ودفع الشر، ويدوم وجله وخوفه من الانتكاس والخذلان بعد التوفيق، فمن حقق هذه الثلاثة -أعني الدعاء والخوف ودوام الافتقار- فقد كَمُل حاله.

السائل: كيف يتخلص المرء من سوء الخلق؟

الشيخ: الناس في سوء الخلق قسمان:

(أ) من يسوء خلقه مع الناس ابتداءً لحقدٍ أو حسد أو بغي، فعلى هؤلاء أن يقرأوا ما ورد من ذمٍّ لهذه الآفات في الكتاب والسُّنَّة وكتب أعمال القلوب ليتولد في قلبه الرغبة في زوال هذه العيوب فيدعو ويتضرع بزوالها، ومن الكتب النافعة في ذلك: كتاب «غذاء الألباب» للسفاريني، وكتاب «مختصر منهاج القاصدين».

(ب) من يسوء خلقه في مقابلة إساءة آخرين، فعليه أن يقرأ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة وكتب الآداب من فضلٍ لحسن الخلق كالكتب السابق ذكرها قريبًا، وليعلم أنَّ حسن خلقه يكون بثلاثة أشياء:

١- التضرع إلى الله بحسن الخلق، وفي دعاء النبي ﷺ الثابت عنه: «**واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي**

لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عنّي سيئها إلا أنت»، وقال أيضًا ﷺ: «**وأعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل**».

٢- اليأس من صلاح النفس إلا بالله، وتأمَّل قول النبي ﷺ: «**لا يهدي لأحسنها إلا أنت**»، «**ولا يصرف عني سيئها إلا أنت**».

٣- الإيمان بالقضاء والقدر، فما من مخلوقٍ يسيئ إلى العبد إلا بتقدير الله وبتسليط الله لهذا العبد المسيئ.

وتأمل قول بعض السلف: «إني لأعرف ذنبي في خلق امرأتي وعبدي ودابتي»، يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا أطاع الله وجد زوجته وعبده ودابته منقادين له في يسر وسهولة، فإن عصى وجد خلاف ذلك، وخرج بعض السلف من داره فآذاه رجلٌ، فدخل بيته وبكى وقال: «ما سُلِّط عليَّ إلا بسبب ذنوبي»، فمن استحضر ذلك حسن خلقه ولابد وصار نظره إلى من ابتلاه سبحانه وليس إلى من جرت على يديه الإساءة أو الابتلاء، وليتعلم أنَّه لابد من استحضاره لهذا وتفكره فيه على الدوام حتى يصير يقينًا في قلبه والله المستعان.

السائل: بعض الناس يُشغل بطلب الرزق لأوقات طويلة وكذا الأمهات قد يُشغلن بحقوق البيت وقتًا طويلًا؟ فكيف يحافظون على صلاح قلوبهم؟

الشيخ: لا يتسنَّى لكثير من الناس أن يكون من طلاب العلم المميزين أو العُبَّاد البارزين، ولكن عليهم بالانشغال بقراءة القرآن وحفظه -إذا تيسر الحفظ- فمن أكثر من قراءة القرآن نهارًا، وجعل له وردًا للتدبر بالليل مع استقامته على الفرائض، وحسن الخلق فهو على خيرٍ كبير؛ إذ القرآن هو وقود العبد الذي لا يستقيم له علمٌ و عبادةٌ مع الإعراض عنه، وفي الاشتغال به وتدبره كفايةٌ لصلاح القلب واستقامته، فعلى هؤلاء أن يستغلوا الوقت قدر المستطاع في قراءة القرآن وحفظه، وعليهم باحتساب النية الصالحة -عند مباشرة مهام حياتهم، وعليهم بدوام دعاء الله والتضرع إليه بصلاح القلوب.

السائل: كيف ينمِّي العبد أعمال القلوب في قلبه؟

الشيخ: مع مزيد اهتمام العبد بالقرآن، وتزايد حلاوته في قلبه، تنمو أعمال القلوب شيئًا فشيئًا، ويعين العبد على ذلك أمور:

١- منها: كثرة الاطلاع على الكتب التي عنيت بذكر أعمال القلوب وأقوال السلف: مثل مدارج السالكين، طريق الهجرتين، كتاب الزهد للإمام أحمد، كتاب الزهد للإمام ابن المبارك[١].

٢- ومنها كذلك غض العبد لبصره عن المحرمات، وكذا عن شهوات الدنيا، وعرضها الزائل؛ فإن ذلك يورث قلبه السكينة والإخبات، فتنجع فيه الآيات والمواعظ، وكذا يقي العبد موت قلبه.

قال إبراهيم بن أدهم: «كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب».

وقال محمد بن واسع: «الذنب على الذنب يميت القلب».

٣- زيارة المرضى والعطف على المساكين واليتامى؛ فإن ذلك يزيل قسوة القلب التي تحول بين القلب وبين رسوخ حقائق الإيمان، وكذا يزيلها تفكُّر العبد في أحوال أهل البلاء من المسلمين، وفي الحديث: «**ارحم اليتيم وامسح على رأسه، يَلِنْ قلبك، وتُدْرك حاجتك**»[٢].

---

(١) ومنها كذلك: «تهذيب النفوس»، و«البيان لأسباب زيادة الإيمان».

(٢) رواه الطبراني وصححه الألباني في «الصحيحة».

٤- إنكار العبد للمنكر وأمره بالمعروف؛ فإن ذلك يحافظ على حياة قلبه، قال حذيفة: «ميت الأحياء: من لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه».

٥- كثرة تفكر العبد في سيئاته؛ فيسهل عليه الخوف والصبر على البلاء لرؤية نفسه مستحقةً للعقوبة.

٦- كثرة تفكر العبد في الموت؛ فيسهل عليه اليقين والزهد والرضا.

٧- كثرة تفكر العبد في خلق الله ونعمه سبحانه؛ فإنَّ ذلك يورثه المحبة والشكر، وكذا يورثه حلاوة الإيمان.

٨- إدمان الحج والعمرة، وإدمان الدعاء فيها -مع الإلحاح والتضرع- بصلاح القلوب؛ فإنَّ أثرهما في زيادة أعمال القلوب، وزيادة الإيمان عجيب.

٩- المداومة على الدعاء في ساعة الجمعة (آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس)، وفي السَّحر بخاصة، وكذا في أوقات الإجابة الأخرى؛ فإن للدعاء حلاوةً في القلب عظيمة، وأثرًا في زيادة أعمال القلوب عجيبًا[١].

(١) أفضل ما يدعو به الأدعية الواردة في الكتاب وصحيح السُّنَّة.

١٠- الاهتمام بطلب العلم، والتفرغ له -إن أمكن، مع عدم الإخلال بأوراد القرآن-؛ فإنَّ العلم يورث الإخلاص، ويذهب عن العبد العجب، ويبصِّره بمكائد الشيطان ومداخله إلى القلوب.

السائل: كيف يزيل العبد العجب من قلبه؟

الشيخ: لذلك أسبابٌ كثيرةٌ: منها التضرع إلى الله بذلك، وكذا بتكلف المرء التواضع حتى يصير له خلقًا(١)، وكذا بإكثار المرء من العبادة والاجتهاد فيها، فمع زيادتها يتعرف العبد على الرب أكثر، ويعرف تقصير نفسه، وكذا بمصاحبة المرء للصالحين الذين هو أشد اجتهادًا منه، وكذا بكثرة ذكر السيئات، وكذا ببعد المرء عن أسباب الشهرة، وكذا بذكر مغبة العجب من حبوط العمل والتعرض لمقت الله، بل وتعريض النفس لسوء الخاتمة، وكذا بالاطلاع على أقوال السلف في التحذير من العجب وكيفية التخلص منه.

سُئِل سعيد بن جبير عن أعبد الناس؟ فقال: رجلٌ له ذنوب، وكلما ذكر ذنبه احتقر نفسه.

(١) هذا التكلُّف هامٌّ جدًا ونفعه مجرب عند الكثير، وهو أن ينظر المرء في كل خلق يريد المرء التطبع به كالتواضع، والجود وغيرها من المكارم، فيتكلفه المرء في البداية ويداوم عليه حتى يصير له خلقًا بعدُ.

وقال المحاسبي: «إذا أصبحت النفس تؤدي بعض الطاعات بسهولة ويسر، فليس معنى ذلك أنها فعلت ذلك بفضلها، بل إنَّ قوة عزمها التي وهبها الله إياها، والخوف من الآخرة قهرها، ولو وجدت من العبد فترة لرجعت إلى أحوالها، ولرفضت الطاعة».

ودخل رجلٌ على الإمام أحمد، وقال: إنَّ أمي رأت لك منامًا، هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء.

وقيل للإمام أحمد: ما أكثر الداعين لك، فتغرغرت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا.

وقال ابن رجب: كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه، وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد العناية بذلك، وكتب مرةً إلى أهل الموسم كتابًا يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه إن وكلني إلى نفسي كنتُ كغيري.

وقال بعض السلف: «كلما صغرت عبادتك في عينك عظمت عند الله، وكلما عظمت في عينك صغرت عند الله».

وقال الشافعي: «إذا خفت على عملك العجب، فاذكر رضى مَنْ تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقابٍ ترهب، فمن فكَّر في ذلك صغر عنده عمله».

وقال أبو سليمان الداراني: «من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الطاعة».

وقال الحسن البصري: «ليس لأمثالنا نوافل، إنما هي لمن كملت فرائضه»(١).

السائل: نصائح يقدمها الشيخ لطالبي الاستقامة؟

الشيخ: قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لم يشتغل العبد بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه، بقي سيئ الجوهر، فإذا خاض في العلم -أيِّ علمٍ كان- صادف العلم من قلبه منزلًا سيئًا، فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير

---

(١) قراءة أقوال السلف -في الجملة- لها أثرٌ كبير في زيادة الإيمان، وله نفعٌ عظيم، وقد منَّ الله عليَّ بذكر جملةٍ كبيرةٍ من أقوالهم في كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان».

أثـره... فالعلـم تحفظـه الرجال، فتحولـه على قدر هممهـا وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا، والمتواضع تواضعًا» انتهى بتصرفٍ يسير.

وقال بعض السـلف: تضيع منك حبة فتبكي، وتضيع منك الجنـة وأنت تضحك. وقـال آخر: «الدنيا بحر، وسـاحله المقبرة، وقد اقتربت مركب نفسك من الشاطئ».

وقـال مخلد بن الحسـين: «ما تكلمتُ بكلمـةٍ أريد أن أعتذر منها منذ خمسـين سنة». وقال حذيفة بن قتادة: «إنْ أطلعت الله في السر أصلح قلبك، شئت أم أبيت».

وقيل لعون: «ما أنفع أيام الدنيا؟»، فقال: «انظر إلى ما تحب أن يجاورك في قبرك، فاعمل به».

وقال سعيد بن جبير: «كلُّ يومٍ يعيشه المؤمن غنيمة».

وقـال أبو سـليمان الداراني: «من أحسـن في نهـاره كوفئ في ليله، ومَنْ أحسن في ليله كوفئ في نهاره».

وقال بعض السـلف: «من حاسـب نفسـه ربح، ومن غفل عنهـا خسر، ومن نظـر في العواقب نجـا، ومن أطاع هـواه ضلَّ، ومـن علـم عمل، ومـن عمل أبصر، ومـن أبصر اعتـبر، فعلم أن الفضل كله لله».

وقـال بعض الحكماء: «لَمَّا صبر الورد على الألم، وتحمل مجاورة الشوك، ووخز الإبر، استحق أن يتصدر مجالس الأمراء، ويصبح رمز الحسن والبهاء، ولما آثر الحشيش السلامة، صار مرتع الحمير، وعلف البهائم، ورخص وداسته الأقدام، حتى غدا رمز المهانة»(١).

وقال بعض السلف: «من لم يكن إيمانه في زيادة، فهو في نقصان»(٢).

ونختـم النصائـح بقـول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجامـع: «**كما لا يُجتنى من الشـوك العنب، وكذلك لا ينـزل الفجَّار منازل الأبرار، فاسلكوا أيَّ طريق شئتم، فأيُّ طريقٍ سلكتم وردتم على أهله**»(٣).

---

(١) هذا- على سبيل المجاز- لبيان عاقبة الصبر الحميدة، ومغبة الإعراض عن الهدى طلبًا للسـلامة، وإلا فالورد لا يتألم بوخز النحل، وليس للورد ولا للحشيش اختيارٌ في هذا، بل الله هو الذي خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى.

(٢) عـلى العبـد أن يراعـي هـذه النصيحـة الهامـة، فعليه بالاجتهـاد في زيـادة عمله الصالـح، فيكـون عـدد الركعات التـي يقومها بالليـل، وكذا عـدد الآيات التي يقرؤهـا في ازديـاد، وكـذا النوافـل التـي يتطـوع بها من صيـامٍ وصـلاةٍ وصدقةٍ وغيرها في ازدياد، وليكثر من التنفل بالصلاة والصيام قدر المستطاع، ويعينه على ذلك علمه بتقصيره الشديد في الخشوع في الصلاة، وبعدم وفائه بحقِّ الصيام كما ينبغي من حفظٍ للقلب والسمع والبصر واللسان وسائر أعضائه عن المعاصي.

(٣) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٥٧٥).

الخاتمة

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل من هذه الرسالة سببًا لهدايتي وهداية إخواني وأخواتي، وأسأله عَزَّ وَجَلَّ أن يبارك لشيوخنا وعلمائنا، وأن يحفظهم وأن يجزيهم خير الجزاء، وأن يفتح عليهم بالخير العميم في الدنيا والآخرة.

وأدعو أهل العلم والصلاح إلى أن يكثروا من الدعاء لعصاة المسلمين بالهداية، وكذا لأهل العجز والكسل أن يرزقهم الله حسن الإرادة وحسن العمل، فهم المساكين حقًا، وأن يمنَّ على طالبي العلم بالعمل به والقيام بحقه حق القيام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

الفهرس

تم بحمد الله